النزعة الصوفية في شعر التيجاني يوسف بشير ولطفي أمان

د. مبارك حسن الخليفة

أستاذ مشارك ـقسم اللغة العربية ـكلية التربية ـجامعة عدن

ولد التيجاني في بيئة ذات فضل وثقافة دينية، بيئة محافظة ذات تعاليم وتقاليد، وكان مولده في مدينة أم درمان عام 1910.[1] ولقب التيجاني تيمناً بصاحب الطريقة الصوفية المعروفة. ثم دُفِع به وهو صغير إلى خلوة عمه الشيخ محمد الكتيابي، فحفظ القرآن الكريم، ومشى في طريقه المرسوم إلى المعهد العلمي في أم درمان، فلم ينتقل من الجو الذي عاش فيه، وإنما ارتقى من درجة إلى درجة، وألمّ في المعهد بعلوم العربية والفقه وابتدأ يكتب الشعر.

وخرج من المعهد فاتصل بالصحافة ثم اعتكف في منزله وأكبَّ على دراسات عنيفة، انحصر جلها في استيعاب كتب الأدب القديم أو كتب الصوفية والفلسفة، وقد شغلته هذه الدراسات عن نفسه فدبَّ إليه الوهن، ثم قضى مخلفاً هذا الإنتاج الباهر..[2] ديوان إشراقة وكانت وفاته عام 1936.

ومن ناحية أخرى فقد تأثر التيجاني باتجاهات التجديد في الأدب العربي. وربما كانت هناك عوامل أخرى أثرت في اتجاهه الشعري، مثل شعوره بالحرمان بكل أبعاده

---

[1] في رواية أخرى سنة 1909، وفي رواية ثانية سنة 1912.

[2] مقدمة الطبعة السابعة لديوان إشراقة.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

ومعاناته، وفقره الذي كان يحسه إحساساً عميقـــاً، بالإضافـــة إلى الظـــروف السياســـية والاقتصادية والفكرية الصعبة التي كانت تحيط بوطنه، والتي بلا شك هي عوامل مؤثرة على نفسه الحساسة الشاعرة.[3]

ويعتبر الشوش أن إخفاقاته هي الينابيع التي انبثق عنها شـــــعره، وتتمثـــل هـــذه الإخفاقات في الفقر والإحباط والمرض العضال وفي فصله من المعـــهد العلمـــي، وفقدانـــه الشجاعة ليثور ضد ذلك كله. ويحكي الدكتور الشوش أن والد التيجاني قبـــض عليـــه في محطة القطار، بمدينة الخرطوم، وهو يحاول الهرب إلى مصر، وأجبره على العودة إلى المـــنزل. يسوق الدكتور هذه القصة ليدلل على عدم شجاعته وإحباطه في آن.[4] ومحاولـــة هروبـــه كانت من أجل العلم، لأن مصر كانت إذ ذاك قبلة عدد من السودانيين الطـــالبين للعلـــم والمعرفة، خاصة الذين اعترضت سبيلهم عقبات حالت دونهم ودون التعليم.

المناخ الثقافي الذي تنفس فيه التيجاني:

ولد التيجاني سنة 1910 ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره تفجرت ثورة 1924 ضـــد الاستعمار البريطاني فعاش سني مراهقته في فشل ما بعد هذه الثورة وما أعقبها من ظـــروف سياسية واجتماعية قاسية. وقد أثمرت هذه الفترة ثماراً نقدية عديدة، وناقش شباب ذلـــك الجيل كل ما كان يشغل بالهم من القضايا الاجتماعية والأدبية.

التصوف والرومانسية عند التيجاني:

حسب تقديري أن اجتماع التصوف والرومانســـية في نفـــس التيجـــاني، وحّـــه

---

[3] مصطفى هدارة، تيارات الشعر المعاصر في السودان، دار الثقافة، بيروت 1977، ص 255

[4] ElShoosh, Background On Modern Sudanese Poetry, p.12

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

موضوعاته وجهة خاصة، وميزه من أبناء جيله من الشعراء، في السودان والعالم العربي، لما بين التصوف والرومانسية من وشائج، على ما بينهما من اختلاف.

فالصوفي رافض للحياة المادية، زاهد فيها، راغب في الوصول إلى الذات العلية، والرومانسي، بصورة عامة رافض للواقع، هارب منه إما إلى الطبيعة أو إلى ذاته، باحث عن عالم مثالي يبنيه من خياله. والصوفي ذاتي، لأن مجاهدة النفس لا تكون إلا ذاتية. والرومانسي أيضاً ذاتي، ويضع ذاته المفردة في مواجهة المجتمع. الصوفي يهتم بوصف الطبيعة ليبرز بديع صنع الباري، وربما حلول في هذه الطبيعة وتوحد معها. والرومانسي يلجأ إلى الطبيعة هروباً من المجتمع، وبثها أحزانه وآلامه وإخفاقاته. وكلا الصوفي والرومانسي عاشق، الأول عشقه إلهي والثاني عشقه مثالي.

ولما كان التيجاني شاعراً رومانسياً صوفياً، فإننا نجد هذا المزج بينهما في شعره، واتفق مع الدكتور عبد المجيد عابدين، الذي تحدث عن فلسفة الدين وفلسفة الجمال وقال "..وكيف كان هذا الشاعر يعبد الجمال ويتغزل غزلاً يسمو على الجسد، وكيف قادته الفكرة الفلسفية المزاوجة إلى محبة الله ومحبة الطبيعة ومحبة البشر لأن الجمال مظهر يتجلى في هذه الأمور جميعاً. وكيف أنه اقترب من وحدة الوجود التي يؤمن بها الصوفية الصادقون".[5]

لطفي جعفر أمان: مولده ونشأته:

كتب الأستاذ القاص حسين باصديق، في أحد أعداد مجلة الحكمة دراسة تحت عنوان: "مواقف إنسانية صادقة في شعر لطفي أمان". تحدث فيها عن زميل صباه الذي ولد

---

[5] عبد المجيد عابدين، الثقافة العربية في السودان، ص 47

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

معه في سنة واحدة، كما ذكر ذلك.

ويفهم مما جاء في تلك الدراسة أن لطفي أمان ولد عام 1928 في مدينة عدن وتلقى دراسته الابتدائية والإعدادية فيها.

ويتحدث الأستاذ باصديق عن نشأة لطفي فيقول :" وقد نشأ لطفي في بيت كل من فيه أهل فن وأدب تأثر بهم كثيراً، فكان منهم الشاعر والرسام والأديب والموسيقار. تفرعت أسرة أمان أسراً أخرى اتسم الكثير منهم بالفن والأدب نذكر الأخ الشيخ عبد الله جعفر أمان، أطال الله عمره، وهو الأخ الأكبر للشاعر لطفي، من أبناء الشيخ عبد الله نذكر الاخوة الشاعر علي أمان صاحب مجلة (أنغام) الفنية والشاعر وديع عبد الله أمان رحمه الله، والفنان طه أمان، وهو أديب فنان إلى جانب عمله الرسمي في إدارة المهندس البلدي بعدن. وكان لطفي يحفظ الكثير من أعمال الشعراء العرب البارزين ومنهم عمر بن أبي ربيعة بشكل خاص".

"هذه المظاهر مجتمعة أكسبت لطفي أمان الأحاسيس المتدفقة والمشاعر الفياضة فتدفقت منابع الشعر عنده في عهد مبكر وفاضت إلى ساحات واسعة لتروي باستمرار مناهل الإبداع المتواصل والمتجدد."

ويرى الأستاذ باصديق أن لطفي اكتسب هذه الصفات الحميدة متأثراً بأسرته خلال تربيته في عدن. واخوته كما نعرف أدباء وفنانون وهم عبد الله وشفيق ونجيب وحمزة وعبد الحميد وفتحي وحسن. وتأثر كذلك بالجو المتغير في السودان الذي كان يدرس فيه وعاش هناك أجواء مختلفة ومع شخصيات لها مواقعها الأدبية والفكرية فتأثر بعاطفيتهم وبتصوفهم كالتيجاني يوسف بشير الذي تأثر به كثيراً. كما تأثر بالأجواء العربية المغايرة وهو يدرس بالسودان فكان يقرأ للكثيرين من الشعراء العرب ذوي الأحاسيس المرتفعة والشعور العاطفي الفياض أمثال علي محمود طه.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

ويذكر الأستاذ باصديق تأثر لطفي بالطبيعة الجميلة في السودان، وبالنيل الجميل والحدائق الغناء والتربة الخضراء الجميلة في مواقع عديدة.[6]

هذه هي صورة الشاعر لطفي أمان كما رسمها قلم الأستاذ حسين باصديق.

لطفي في السودان: بداية الرحلة

أجري لقاء إذاعي مع لطفي جعفر أمان عام 1964 بثته إذاعة عدن، حكى فيه لطفي رحلته من عدن إلى السودان، وحكى جانباً من حياته هناك.

قال في ذلك اللقاء : " أنا سافرت لأول مرة في حياتي، وكان عمري أكثر من ثلاث عشرة سنة، وكان ذلك كما أعتقد في يناير 1940، في أتون الحرب".

وقد أعطى لطفي حيزاً في ذلك اللقاء للحديث عن الحرب ومظاهرها، ثم قال:

"...واستغرقت رحلتنا إلى بورتسودان حوالي ثلاثة إلى أربعة أيام، ثم واصل رحلته إلى مدينة أم درمان في وسط السودان.

فترة الدراسة

يفهم من اللقاء المذكور أن لطفي التحق بالمدرسة الثانوية في أم درمان، وبعد أربع سنوات نال الشهادة والتحق بكلية الآداب، وتخصص في اللغة العربية واللغة الإنجليزية والتأريخ، وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات.

وقد أثنى على الجو الدراسي في السودان وعلى السودانيين ووصفهم بالطيبة والكرم والاجتهاد والإخاء وحب الدراسة.

---

[6] مجلة الحكمة لسان حال الأدباء والكتاب اليمنيين، العدد 187، يناير 1992.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

السودان والشعر

قال لطفي: " أنا لا أذكر بالضبط عهدي بالشعر، ولكن عندما رحلت من عـــدن في بداية سنة 1942، اتصلت بصديق لا أنساه مطلقاً، هو الدكتور محمد عثمان جريتلـــي، وهو من أكبر شعراء السودان في الوقت الحاضر .. جمع الأدب والطب، ويذكرنا بـالدكتور إبراهيم ناجي، فبدأ وهو يقرأ لي شعره ويقرأ لي من دواوين الشعراء الآخرين فحبّـــب إلى الشعر جداً فوجدت نفسي فجأة أعمل "شعر".

وتحدث لطفي عن كثرة الشعراء في السودان وذكر أن معظم المدرســـين كـــانوا شعراء، وقال : "ومع الأسف لا أذكر الكثير منهم،ولكن لا يمكن إطلاقاً أن أنسى شاعرهم الأكبر الشيخ "البنا". فهو يعتبر من كبار الشعراء السودانيين وكان يدرسني اللغـــة العربيـــة والأدب العربي، وله فضل كبير علي ...أنا أعتقد أنني أحببت الأدب وأحببت الشعر بفضل هذا الأستاذ العظيم".[7]

وفي لقاء تلفزيوني، أجري معه وهو في آخر أيامه وعلى سرير المرض، وبثه تلفزيون عدن قال لطفي إنه تأثر بديوان "إشراقة" للشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير.

وقد أشار السيد محمد عبده غانم في مقدمة ديوان لطفي الأول المسمى "بقايا نغم" إلى تـــأثر لطفي بالتيجاني في نزعته الصوفية أو الروحية التي تسود كثيراً من قصائده.[8]

ويتضح من كل ذلك أن لطفي أمان تمت ثقافته وبدأ كتابة الشعر في الســـودان، متأثراً بالجو الدراسي العام، وبأفراد ذكر بعضهم بالاسم، إلى جانب تأثره بديوان "إشـــراقة"

---

[7] شريط مسجل مع الشاعر لطفي أمان.

[8] مقدمة ديوان بقايا ونغم، ص 5.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

للتيجاني يوسف بشير.

وواضح كذلك أن لطفي لم يعرف طريقه إلى الشعر في مدينته عدن، وهو أمر طبيعـــــي إذ غادرها وعمره قد تعدى الثالثة عشر بقليل، ولكن بالتأكيد أن نشأته الأولى تركت بصماتها في نفسه، وأعدته كي يصير فناناً وشاعراً ومبدعاً في مجالات عدة.

بين التجاني ولطفي:

علمنا أن التجاني نشأ نشأة دينية صوفية، وكانت دراسته محددة بهذه النشـــأة، إذ اتجه إلى التعليم الديني، وقرأ كثيراً في الفلسفة الإسلامية وفي التصوف، وتشرب التيجـــاني النزعة الصوفية منذ نعومة أظافره. وعلمنا أن التيجاني واجه ظروفاً سياسية واجتماعية صعبة إضافة إلى ما عانه من شظف العيش والفاقة.

بينما نشا لطفي نشأة مغايرة، وتلقى تعليماً مدنياً لا دينياً، في سني حياتـــه الأولى فتحدد مساره التعليمي فيما بعد، إذ واصل دراسته الثانوية والجامعية، إضافة إلى ذلـــك أن لطفي لم يعرف عنه أنه قرأ أو تعمق في الفلسفة والتصوف كما فعل التيجاني.

فكيف تأثر لطفي بالتيجاني على ما بينهما من اختلاف في النشأة والتعليم والثقافة؟

وسأجيب عن هذا السؤال في نقطتين.الأولى: أن لطفي كان صغير السن حين ذهـــب إلى السودان، وعاش سني مراهقته هناك. عاش بإحساسه المرهف وعاطفته الجياشة الأمر الـــذي أعده أن يكون شاعراً رومانسياً، وقد اطلع على نموذج راق من الشعر الرومانسي في ديـوان "إشراقة" للتجاني يوسف بشير. ولما كنا قد أشرنا، في غير هذا الموضع إلى الوشـــائج الـــتي تربط بين التصوف والرومانسية، فقد تسربت النزعة الصوفية مع النزعة الرومانسية إلى نفس لطفي أمان.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وأما النقطة الثانية فتتعلق بالشعور بالغربة، فالتيجاني يشعر بالغربة عـــن مجتمعـــه، ولطفي أمان يعيش الاغتراب الحقيقي وهو بعيد عن وطنه وسبب شعور التيجاني بالغربـة في وطنه إحساسه العميق بالفقر وهو يرى الأثرياء حوله ينعمون بالعيش الرغد، وإحساسه بأنه أديب ضائع في وطنه، وإحساسه بالغبن حين دبرت له مؤامرة فصل على إثرها من المعـــهد، وإحساسه بضياع خيرات وطنه التي ينعم بها الأجنبي بينما هو يعاني الفاقة والعوز. كل هـــذا عبر عنه التجاني شعراً، فهو القائل عن فقره :

بنفسي من هان حتى تـــــــو ضع في نفسه كل معنى رفيع
مشى خاشع الطرف رث الثيا ب كئيباً كثير مرائي الخسوع
تأكله حسرة في الضمـــــير و تسحقه خيبة في الضـــلوع
يبين عليه انكسار الفـــــؤ اد ومسكنة المستذل الوضيع

إلى أن يقول :

فيا آهة ملء دنـــــيا الفقير ويا أنة ملء دنيا الوجيـــــع
لأنت لدى الله أسمى وأنبل من بســـــــمات الخليـــع[9]

وهو القائل عن ضياعه بوصفه أديباً مجدداً

يا أديباً مضيعاً من بني الدنيا بحسب الأديب محض انتجاعه
أنت يا رائد القريض وما أنت من سقط الورى ولا من رعـــــاعـــــه
أنت يا رائد الجديد بك استظهر من في الوجـــــود ســـــر متاعـــــه[10]

ويقول ساخطاً على الأجانب الذين استمتعوا بخيرات بلاده :

قف بنا نملأ البلاد حمـــاساً ونقوض من ركنها المـــرجحن

---

[9] التيجاني يوسف بشير، ديوان إشراقة، ص 101.

[10] نفس المصدر، ص 47.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

هي للنازحين مـــورد جود وهي للآهلين مبعث غـــــبن

يستدر الأجانب الخير منها والثراء العريض من غير مـــــن

أبطرتهم بلادنا فتــــعالى ابن "أثينا" واستكبر الأرمــــن(11)

والأمر الأهم هو غربة الروح التي يحسها التجاني وكانت تعذبه، وتركت صدى في نفـــس لطفي كما سنرى. ففي قصيدة " الصوفي المعذب" تتجلى غربة الروح في قوله :

ثم ماذا جـــد بعـــد خلوصي وصفائي

أظلمت روحي ما عدت أرى ما أنا رائي

وفيها يقول:

للمنايا الســـــود آمالي وللموت رجائي .

آه يا موت جنوني آه يا يـــوم قضـــائي

قف تزود أيها الجـــبار من زادي ومائي[12]

ولطفي يبث أحزان الاغتراب إلى الطفل الأنيس عادل ابن أخيه عبد الحميد الــذي ودعه بقبلة قال عنها لطفي: "لما يزل لهيباً في دمي":

باعدتني عنك لو تدري وهاد ....وروابي

وأنا وحدي هنا ...... أنهل من دمع التصابي

إلى أن يقول:

كم تغربت ألاقي ..... في زماني ما ألاقي

---

[11] نفس المصدر، ص 66-67.

[12] نفس المصدر، ص 125.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وشربت المر في دنياي من كأس دهاق[13]

ولطفي أيضاً يحس بالغربة الروحية، وبعدم انتمائه إلى سلالة الطين:

وأراني خلقت للروح دنيا في سماء الخيال تستهديني
وكأني أعيش بين أيادي الله لا في .. سلالة من طين[14]

إذاً كانت هناك حالة استقبال في نفس لطفي لتقبل رومانسية وتصوف التيجاني ولتتقبل شعوره بالغربة وسخطه على المجتمع. وقد عبر لطفي عن ذلك في قصيدته المسماة "الصوفي المعذب" -وللتيجاني قصيدة بنفس الاسم وقد أهدى لطفي القصيدة "إلى روح التيجاني يوسف بشير الطاهرة"، يقول في أولها:

حلم كلها حياتي .....ودنياي خيال مفجر العبرات
وأنا في الصخور ينبذني الدهر هشيماً على رفات الحياة
طوقت روحي الشريدة بالليل تفاني في غمرة الظلمات

ويخاطب التيجاني بقوله:

أنا هذا .. وأنت في القبر ثاوٍ .. لا شقاء... ولا لهيب شكاة
كنت مثلي .. تضيق بالعالم الرحب .. وتهفو مسعر النفثات
كنت مثلي .. تعيش في عالم الروح ولكن بالدمع والحسرات
أين مني أنت؟ وأين أنا اليوم،..... كلانا في عالم الأموات[15]

---

[13] بقايا نغم، الطبعة الأولى، يناير 1948، ص 48.

[14] نفس المصدر، ص 59.

[15] نفس المصدر، ص 24-25.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

هكذا جمعت الغربة الروحية وجمع السخط بين التيجاني ولطفي..

النزعة الصوفية في شعر التيجاني:

ليس هناك شاعر سوداني ظهر أثر التصوف في شعره كما ظهر في شعر التيجاني يوسف بشير، بل هناك من الدراسين من يرى "أنه أصدق شاعر صوفي عربي في النصف الأول من القرن العشرين، ليس في السودان فقط، بل في العالم العربي والإسلامي على الإطلاق، لأننا يمكن أن نجد في فكره الشعري الرائع، مضموناً وشكلاً، تصوفاً فلسفياً يصله بأهم النظريات لدى الصوفية".[16]

ونجد مفتاح الصوفية في قصيدة (نفسي) التي يقول فيها:

هي نفسي إشراقة من سماء الله تجبو مع القرون .... وتبطئ
موجة كالسماء تقلع من شط وترسي من الوجود .. بشط
خلصت للحياة من كل قيد ومشت للزمان في غير شرط

وكما يقول

هي قسطي من السماء فما أضيع في العالم الترابيِّ .....قسطي..

وفكرة وحدة الوجود هي التي تلفت النظر في شعر التيجاني، ويرى الدكتور عبد القادر محمود أن التيجاني لا يقل مكانة عن ابن الفارض أو ابن عربي في مدرسة وحدة الوجود.[17]

وتتضح وحدة الوجود عند التيجاني أكثر مما تتضح في قصيدة "الصوفي المعذب" التي يقول فيها:

---

[16] عبد القادر محمود، الفكر الصوفي في السودان، دار الفكر العربي 1968، ص 150.

[17] نفس المصدر، ص 150.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

هذه الذرة كم تحمل ... في العالم ... سرا
قف لديها وامتزج في ... ذاتها عمقاً وغورا
وانطلق في جوها المملوء ... إيماناً .....وبرا
وتنقل بين .....كبري ... في الذراي وصغري
تر الكون لا .... يفتر تسبيحاً وذكرا
.....
الوجـــــود الحق ما أو ... سع في النفس مداه
والسكون المحض ما أو ... ثق بالروح عـــراه
كل ما في الكون يمشي ... في حنايـــــاه الإله
هذه النملة في رقتـــها ... رجـــــــع صداه
هو يحيـــا في حواشيها ... وتحيا في ثـــــراه
وهي إن أسلمت الروح ... تلقتـــــها يـــداه
لم تمت فيها حياة الله ... إن كـــــنت تراه[18]

هنا التوحد بين الخالق سبحانه وبين ما خلق، فقد حلت روحه في الكون حتى هذه النملـــة الصغيرة هي رجع صداه، تحيا بقدرته وحين تسلم الروح تعود إليه.

وفي حديثه عن الذات العلية تتجلى "وحدة الوجود" في فكرة الحب الإلهي، وفي هذا، كمـــا يرى بعض الدراسين، يختلف عن رابعة العدوية، فشعر رابعة في الذات العلية عاطفي. أمـــــا شعر التيجاني فقد كان فلسفياً في معناه، ولكن لا يخلو من عاطفة، بل هو مزيج من العاطفة

[18] ديوان إشراقة، ص 124.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

والتفلسف[19] وخير مثال لذلك قصيدته "الله" التي يقول فيها:

مدهش ذكره مخيف الأداء
خير ما في الوجود من أسمـــاء
سر ما في الحياة من ليلها الطا
مي ولحى فجرها الـــــوضاء
ظمأ في النـــفوس لأرى إلا
في ينابيـــعه إلى الأنبيـــــاء
كوكب يزحم الفضاء ودرى
مفيـــض على جبين السماء
هو لماح برقـــها في حـــواشي
الليل أو في مضارب الصحراء

وهذه القدرة أزلية، وصفاته أزلية، وكما يختار الشاعر المحب صفات تلائم حبيبه الآدمـــي، فالتيجاني الصوفي، يختار صفات تلائم الذات العلية، التي تتجلى في كل شـــيء في الفجـــر والليل والرعد وفي الهدوء والهواء والعواصف وفي النار والنور والبرد والماء:

قيل لي وحُدِّثت عنه في الزمان
وحُدِّثت به في سريرة الآناء
إنه النور خافقاً في جبين الفجر
والليل دافـــــقاً في المـــاء

[19] أحمد عبد الله سامي، الشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير، دار الثقافة بيروت، ص 103.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

صفه رعداً مجلجلاً في السموا

ت وصوتاً مدوياً في الفضاء

أو هدوءاً أو رقة أو هـــواء

أو صـــدى للعواصف الهوجاء

هو إن شئت محض نار ونور

وهو إن شئت محض برد وماء

ثم ينتقل التيجاني إلى ما هو أرحب من ذلك: إلى خلق الإنسان الذي هـــو مـــن مظاهر قدرته سبحانه، وإن الله أقرب إلى الإنسان من نفسه، وتتجلـــى قدرتـــه في كـــل الوجود:

نحن محلي علاه في كل دان

من مرائي الوجود أو كل ناء

ظن أدنى الظنون في قربـــه

منك وأقصى ما شئت من علياء

وأدن بالجانح المشط وصخر

بالخيال المـــسوم العـــــداء

وتوغل بين الظنون ونفرها

خيالاً وأقعـــــد على الجوزاء

تلقه في الحياة أدنى إلى نفسك

منـــــــها إليك في الإصغاء[20]

---

[20] ديوان إشراقة، ص 11.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

النزعة الصوفية في شعر لطفي أمان:

يقول الأستاذ عمر عبده غانم في المقدمة التي كتبها لديوان "بقايا نغم": "وأول مـــا يلفت النظر في هذا الديوان نزعته الصوفية واتجاهه الروحي، والشاعر على حد قوله، ليـــس من ماء وطين، بل هو روح ليس يفنيها الزمن"...

"ولست أدري إلى أي حد يؤمن الشاعر بالصوفية، وإلى أي درجة قد تشـــبع بتعاليمهـــا، وهل الصوفية عنده عقيدة أم مذهب.أم فكرة. ولكن لا سبيل إلى إنكار نزعته الصوفيـــة أو الروحية التي تسود كثيراً من قصائده، ولعل الشاعر في هذا تأثر بالشاعر السوداني التيجـــاني الذي يؤبنه في الديوان".[21]

ففي قصيدة "الصوفي المعذب" التي أهداها إلى روح التيجاني، يصف نفسه بالطـــهر وأنه فوق النهى وقد تسامى في مدارج الروح:

أنا طهر يشيع في معبد الحب ويحبو القلوب بالـــــرحمات
أنا فوق النهى، فلم يدرك العقل مداي ..فحار في معجزاتي
قد تساميت في مدارج روحي .. في ضياء الإله أفرغت ذاتي[22]

ويقول لطفي أنه تجرد من الدنيا بوجدانه وحسه وأنه لبس الحب صوفياً ويتحدث عن خمرته التي صيغت من نور، وعن لحونه وصلاته، كل ذلك في أبيات يسود فيها الجو الصوفي:

قد تجردت عن الدنيا بوجداني وحـــسي
ولبست الحب صوفياً به طهـــرت نفسي

---

[21] مقدمة ديوان بقايا نغم، ص 4.

[22] نفس المصدر، ص 25.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

خمرتي نور من الأحـــلام لم تخفق بكأس
ولحوني .. خطوات الغيد في أعذب جرس
وصلاتي.. في شفاه الحب همس بعد همس

وكما تحدث التيجاني عن قدرة الله عز وجل الأزلية وعن صفاته الأزلية واختـــار صفـــات تمثلت في الليل والرعد، إلى آخر ما ذكرنا في غير هذا الموضع، كذلك فعل لطفي:

سمعت الإله رعداً يدوي في السموات والثرى والمـــاء
ورأيت الإله نوراً تعالى في جبين الصباح ضافي الضياء
ولقيت الإله في أفق الروح مفاضاً من رحمة وإخـــاء
وعرفت الإله في روعة الكون .. ومجلي آياته الغراء [23]

الحب والجمال عند التيجاني

هام التيجاني بالجمال وعبَّر عنه في مظاهر شتى، وبسبب ذلك أطلق عليه الدكتـــور عبد المجيد عابدين اسم "شاعر الجمال" [24] ويعود هيامه بالجمال إلى نفسه الحساسة المتعلقـــة بكل ما هو جميل، ويعود كذلك إلى الأثر الصوفي، ونزعته الرومانسية.

والجمال عند التيجاني مرتبط بالحب، فقد تحرق في الهوى والصبابات -على حد قوله:

وتحرقت في الهوى والصبابات وألهبـــــت في المزاهر لحني
علم الحســـــن ما أكابد من وجـــد وما تنفذ الصبابة مني
والجمال الحبيب يعلم كم ألهبت فكري أسى وأسهرت جفني [25]

---

[23] نفس المصدر، ص 36.

[24] عبد المجيد عابدين، التيجاني شاعر الجمال، مطبعة الشبسكي،مصر، ص 17.

[25] ديوان إشراقة، ص 151.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وقد سما التيجاني بالجمال والحب معاً، بل بالطبيعة معهما، وهي مظهر من مظاهر الحـــب ومنتجع للحب.

سموت بالنور ما كا ن في أشعة الشمس
وبالجمال مـــتى كا ن في انطلاق وحبس
وبالهوى ما تسامى على ضلال ولبـــس
وبالشذى حيث يغدو وبالندى حين يرسي[26]

والحديث الذي سقناه من قبل عن مزج فلسفة الجمال بفلسفة الدين، وعن الوشائج الـــتي تربط بين الرومانسية والتصوف، يبدو أكثر وضوحاً في إحدى روائع التيجـــاني، وهـــي قصيدة "جمال وقلوب" التي يقول فيها:

وعبدناك يا جمال وصغنـــا لك أنفاسنا هيامـــاً وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجـــر نا ينابيعـــها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك ضعف جميل حتى استفاض وأربى
وحبوناك ما يزيدك يا لغز وضوحاً وأنت تفتأ صعبا
من ترى وزع المفاتن يا حسن وأوحـــى لنا أن نحبـــا
من ترى ألهم الجمال وقد أعطاه من جبرة الحوادث عصبا؟
أن يبث الهوى مفاتن في جفن بليغ وأن يجود ويأبى؟
من ترى وثق العرى بين مسحورين أسماها جمالاً وقلبا؟
إنه صانع القلوب التي تنصب في قالب المحاسن صبـــا

---

[26] نفس المصدر.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

فالتيجاني يعبد الجمال ويسمو به، ويجري وراء هذا اللغز الـذي يـزداد صعوبـة وخفاء، ثم يتساءل عن سر هذا الجمال، وعن الذي وزع المفاتن وأوحى للنـاس بـالحب، ووثق العري بين الجمال والقلب وتكون الإجابة: "إنه الله سبحانه وتعـالى".ولا نحـس أن التيجاني يتكلم عن جمال مادي وإنما هو شيء أثيري روحي يسمو على الماديات.

وآخر أبيات القصيدة تدل على أن التيجاني لا يتكلم عن جمال معين لشخص مـا، وإنما يتكلم عن الجمال أياً كان، جمال الحياة الآمنة أو المرعبة، جمال الحيـاة في الشـرق في الغرب، الجمال القاسي أو الهين وقعه على النفس، والتيجاني وحده دنيا هوى لهذا الجمـال، فيه كنوز المشاعر قربى له:

يا جمال الحياة في حيث مـا كان أماناً وحيثما كان رعبا
وجمال الحياة في كل من أعمل شرقاً وكل من سـار غربا
أقسى يا حسن ما تريد وتبغى أو فكن هيناً على النفس رطبا
أنا وحدي دنيا هوى لك فيها كل كتر من المشاعـر قربى

عند لطفي أمان

يقول الأستاذ محمد عبده غانم في مقدمته لديوان "بقايا نغم" أما الموضوع الـذي يتناوله الشاعر العابد كما يسمي نفسه فهو الحب أولاً وأخيراً، فلو أنت جردت الديوان من الألفاظ والمعاني التي تتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد لما بقي إلا الترر.

والعجيب في أمر الحب أن يكون عند الشاعر معنى وجوده المادي والروحي في آن واحـد وأن يراه السبيل الأوحد إلى الوجود والخلود:

وما الحب إلا نعيم الحياة وكأس الخلود بكف الأله

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

ولذلك نجده تارة يتحدث عن الحب العذري وأخرى عن الحب الآثم ولست أدري أنصدق الشاعر حين يقول:

فلست العاشق المفتون بالهوى العذري أم حين يقول:

لم يدع كرمة من الإثم إلا عصرتها الأهواء في كاساته[27]

لقد أصاب الأستاذ محمد عبده غانم في حديثه عن لطفي أمان المتناقض مع نفسه في تعبيره عن الحب. ويمكننا أن نفصل القول فيما أجمله الأستاذ لطفي أمان – الذي لم ينشأ نشأة دينية صوفية، و لم يتعمق الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي، كما هو الحال بالنسبة للتيجاني – لطفي يكتب الشعر المتجرد من الماديات، الجانح إلى التعبير الصوفي تأثراً بالتيجاني يوسف بشير. يقول لطفي:

وأنا الشاعر الذي عبد الحسن وصاغ القصيد فيه فتونا

وأنا العابد في صلاة الحب أفنى شبابه ... المفتونا

وأنا من نصبت كل جمال قدسي السنا ريا حنونا[28]

ففي هذا الشعر أصداء من قصيدة التيجاني "جمال وقلوب".

ويقول لطفي في موضع آخر:

سما بي في الهوى قلبي وعن نزواته فكري

فلست العاشق المفتون إلا بالهوى العذري

فلا تخشي فتىً يهواك روحاً ضافي الطهر[29]

---

[27] مقدمة بقايا نغم، ص 5.

[28] قصيدة ذات الصليب، بقايا نغم، ص 12.

[29] نفس المصدر، ص 28.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

هذا عن "البولندية الحسناء" التي قال عنها أن مقامها ليس بيننا في هذه الأرض وإنما في سمـاء الله، وهي مخلوقة من نوره المحض:

مقامك في سماء الله لا في هـــــذه الأرض
جمال أنت لم يُخلق سوى من نوره المحض

ويأتي الفارق الأساسي بين "إشراقة" التيجاني و"بقايا نغم" لطفي أن ديوان إشـراقة خلا تماماً من الشعر الحسي ومن وقدة الشهوة، بينما نجد هذا الشعر وهذه الوقدة في ديـوان "يقايا نغم" فلنستمع إلى هذه المقاطع:

فتضاحكنا وقد مالـــت على صدري رفقا
وملأنا كأسنا خمراً .. وأحـــلاماً .. وشوقا
ورأينا العمر دنيا .. لألأت في الكأس غرقى
فانطلقنا في سنى أحلامنا جســـماً وقلبـــا
وتعانقنا عنـــاق اثنين أشواقـــــاً وحـــبا

هنا في غرفة حمراء .. من صنـــع الخيال
وفراش رقصت في عطره أحلى الليـــالي
ها هنا أحلام مسحورين : قلب وجمال

واستمع إليه أيضاً يقول:

وانثنت تستر بضاً شفّ عن نار ونور
وتسوي بيد الحسن رخيات الشعـــور

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

فترفقت عليه حين قامـــت في فتـــور
وتطلعت إليها وهي تغلي في دمـــائي
فجلت لي بسمة .. وضاعت في حياء
واعتنقنا لـــوداع ضرجته الصبـــوات
وعلى مبسمها الظمآن همو قـــبلات
ثم سلـــــمنا وودعنا وفينا حرقات[30]

لن تجد قارئي الكريم مثل هذا الشهر في ديوان إشراقة.

ولطفي، يظهر أحياناً، وفي قصيدة واحدة، بمظهرين متناقضين: مظـــهر الصـــوفي الـــورع، ومظهر الشاعر الحسي الذي يشتعل بوقدة الشهوة. فالبولندية الحسناء التي مقامها في سمـــاء الله، والتي خلقت من نوره المحض، والتي عشقها عشقاً عذرياً، يقـــول عنـــها وفي نفـــس القصيدة:

عبدتك في حنى شفتين ناديتين بالعـــطر
وفي نهدين مضطربين إن ضمهما صدري
وفي ثغر رقيق اللثم ما أحلاه مـــن ثغر[31]

لن تجد – قارئي الكريم – مثل هذا الموقف المتناقض في إشراقة النيجالي يوسف بشير.

وإذا ما عدنا إلى المقدمة نجد تفسيراً من الأستاذ محمد عبده غانم لميل لطفي إلى هذا اللـــون من الشعر، يقول الأستاذ غانم: "ولكني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الإثم كثير على شـــاب لم يكد يتخطى العقد الثاني من عمره، وأن ليالي الخمر واللهيب التي يحدثنا عنها الشاعر ليست

---

[30] نفس المصدر ص 37–38.

[31] نفس المصدر، ص 26.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

في الواقع إلا صدى لألحان علي محمود طه وإلياس أبو شبكة وأضرابهما وإلا لمـــاذا يلجـأ الشاعر العابد إلى الخمر واللهيب .. ولماذا يحدثنا الشاعر العابث عن الضمير، ولماذا يقشـعر جسمه من لمس الأنامل الرقيقة ويطفح به الذهول؟ فإما أن يكون للخيال دخـل كبـير في لياليه الحمراء وإما أن يكون حبه العذري مجرد ميل وتقليد. أما اجتماع النزعتين فتنـاقض لا أقول أن وجوده مستحيل، ولكني أقول إنه غير موجود بهذه الدرجة من الوضـوح إلا في الشخصية المزدوجة".[32]

بقي جانب آخر في شعر الجمال والحب، وهو تعبير التيجاني عن عبادتـه وإيمانـه بالحب عند النساء المسيحيات، والمسيحيون في شمال السودان أصولهم مصريـة، هـذا و لم يعرف عن التيجاني أنه تغزل بامرأة سودانية مسلمة إلا في شطر بيت واحد يقول فيه:

يرف عليه شباب الفنون وتبرق في وجنتيه الفصد[33]

والقصيدة تشير إلى العلامات التي توجد في وجه المرأة السودانية وتسمى "الشلوخ".

لقد نشأ التيجاني في ظروف كانت فيها المرأة السودانية غير المسيحية محتجبة، وقـد عاش التيجاني في حي من أحياء مدينة أم درمان اسمه "المسالمة" معظم سكانه من المسـيحيين، وكان يرى الفتيات المسيحيات يخرجن سافرات إلى الدراسة أو العمل أو الكنيسـة الـتي كانت وما زالت، في نفس الحي. ومن أشهر قصائده في المسيحيات قصيدة "زهى الحسـن" التي يقول فيها:

لا تثأري من فؤادي كفى بدمعي ثارا
حسبي افتئاتاً تجنيك نفرة ... وازورار
آمنت بالحسن بردا وبالصبابة ... نار

---

[32] نفس المصدر، ص 5.

[33] ديوان إشراقة، ص 58.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وبالكنيسة .. عقداً منضداً من عذارى
وبالمسيح ومن طاف حوله .. واستجار
إيمان من يعبد الحسن في عيون النصارى[34]

وهو القائل:

وتلك وفي معاصمها سوار وذاك وفي ترائبه صليب[35]

وقد خصَّ التيجاني المسيحيات بالجمال، والمسلمين بالحب، وذلك في قوله:

درج الحسن في مواكب ليست مدرج الحب في مساجد أحمد[36]

وما جاء في شعر لطفي من ذكر المسيحيات ليس بالضرورة أن يكون تأثراً بالتيجاني. فتجربته مع "البولندية الحسناء" التي أهداها القصيدة بقوله: "إلى تلك الصغيرة الظامئة إلي سيكب الحب" يبدو أنها تجربة حقيقية، ونعرف أنها مسيحية من قوله:

يزينك من هوى عيسى صليب طاهر الومض[37]

وله قصيدة أخرى اسمها "ذات الصليب"[38] وهي غير البولندية الحسناء نعرف ذلك من اختلاف الاسمين، فذات الصليب اسمها "إيفون" ، إيه إيفون والملاحة تفتر بريقاً كهالة البدر منك. وأما البولندية الحسناء فاسمها "هيدي":

إلا أفديك يا هيدي وأفدي فيك بولندا[39]

---

[34] نفس المصدر، ص 8.
[35] نفس المصدر.
[36] نفس المصدر، ص 7.
[37] بقايا نغم، ص 6.
[38] نفس المصدر، ص 11.
[39] نفس المصدر، ص 8.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

أختم حديثي عن لطفي بما تنبأ به الأستاذ محمد عبده غانم في ختام مقدمته إذ قال: "هذا والشاعر ما يزال في أطروان الشباب والمنتظر من هذا النبوغ الباكر أن يوافينا عند النضوج العاطر بأنغام أخرى كثيرة نطرب لها أعظم الطرب ونعجب بها أشد الإعجاب." لقد صدق الأستاذ محمد عبده غانم فقد نضجت موهبة لطفي ووافانا بأنغام أخرى كثيرة طربنا لها أعظم الطرب وأعجبنا بها أشد الإعجاب، ودواوينه تشهد بذلك.

آداب. العدد 20 ديسمبر 2002. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم